الإخلاق
في الاقتصاد الإسلامي

المستشار عبد الحليم الجندي

دار المعارف

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر · دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع

مقدمة

يقتضى الوصف الإسلامى لموضوع هذا الكتاب أن نبدأ بما بدأ به اللّه تعالى وحيه وهو العلم ، وبما وصف به نفسه الملك القدوس السلام . ودينه دين السلام لكل العالم .

وكان طبيعيا أن تتضمن بعض دساتير الدول الإسلامية أن الإسلام دين الدولة ، وأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع ، وأن يتتابع رؤساء الجمهورية فى مصر على التذكير بهذه الخصيصة كمعلم من معالمها ، ويرسم الرئيس جمال عبد الناصر فى كتاب (فلسفة الثورة) صورة دوائر لسياسة الدولة مصرية وعربية وإفريقية وإسلامية ، ثم يقدم كتاب العدالة الاجتماعية وحقوق الفرد سنة ١٩٥٤ ، ويقول : « إن الحل الأول لمشكلة الفرد والجماعة قد جاء به الإسلام » .

« ونقف – نحن العرب والمسلمين – فى هذا الجانب من العالم نشهد الصراع الذى يدور بين هذه المذاهب المادية والمبتدعة ، ونرقب المعارك الناشبة بين الشعوب وحكوماتها حول تلك المذاهب ، فنعجب أشد العجب ، لأن مشكلة الفرد والجماعة التى حيرت بال المفكرين والفلاسفة فى أوربا من قرنين أو قرون ، قد وجدت الحل الصحيح فى بلادنا من ألف وثلاثمائة سنة ، منذ نزل القرآن على محمد بن عبد اللّه يدعو إلى الأخوة الإنسانية ، ويفصل مبادئ العدالة الاجتماعية على أساس من التراحم والتكافل الأخوى ، والإيثار على النفس فى سبيل النفع العام للجماعة من غير طغيان على حرية الفرد ، ولا إذلال له ولا إنكار لذاتيته ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾[1] .

« فليكتف المفكرون بما بذلوا من جهد ولا يبحثوا عن حلول أخرى لمشكلة الفرد والمجتمع .

« إن عندنا الحل – الحل الأول – الذى نزل به الوحى على نبينا منذ ألف وثلاثمائة سنة ، هو الحل الأخير لمشكلة الإنسانية » .

وعندما حاولت جيوش إنجلترا وفرنسا وإسرائيل غزو مصر سنة ١٩٥٦ ، رأيناه يستنهض الأمة للحرب وهو على منبر الأزهر الشريف .

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٠ .

وفى عام ١٩٧١ أصدر الرئيس السادات دستور مصر الحالى ، وفى النص الأول منه أن مصر جمهورية عربية ، والشعب المصرى جزء من الأمة العربية يعمل لوحدتها الشاملة ، وفى نص المادة الثانية أن الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية ومبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع ، ثم ازداد النص توكيدا بتعديل دستورى جرى عليه استفتاء عام للأمة جعل الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى .

والرئيس حسنى مبارك دائب على استنهاض قوى الأمة وتعميق رقعة التربية الدينية ، والتمكين للغة العربية وإصلاح أحوال التعليم والمعلمين ، وهو حرص على الإسلام يتكرر إعلانه فى الكثير من المناسبات العامة والخاصة ، ومن ذلك قوله لأعضاء مؤتمر الدول الإسلامية سنة ١٩٩٤ وفيهم ملوك الدول ورؤساؤها ووزراؤها وممثلوها ، وقد نيفت على خمسين دولة : « إن التحديات أمامنا خطيرة ، والمسئولية التى نحملها جسيمة ، غير أننا لا نملك أن نفرط فى أداء هذا الواجب وحمل الأمانة فى سبيل اللّٰه والأمة ، لا نملك إلا أن نتقدم الصفوف ، ونتصدر الركب ونتحمل المسئولية حتى نسلم الراية إلى الأجيال القادمة عالية خفاقه ، تنحنى أمامها أعتى الجباه .

لا نملك سوى أن ننصر الإسلام ونذود عنه فى مواجهة هذه الأخطار المحدقة من الداخل والخارج ، فهو سندنا وملاذنا وهو عقيدتنا الخالدة ، وهو نبع حضارتنا ، لا نملك إلا أن نعمل ما ملكت أيماننا لتحويل الفرقة إلى وحدة ، والتنازع إلى توافق وتضامن ، والتناحر إلى تعاون وتكامل ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ .

* * *

ويقتضى الوصف الإسلامى لموضوع هذا الكتاب أن نتأخى المنهج القرآنى الذى قعدته أصول الفقه وصيرها العلماء أصولا للفكر . فأفادت الدراسات كل الفائدة من استقراء الواقع والاستنباط منه على مدى قرون خمسة عشر ، وعلى وجه كرة الأرض حيث الحرية والمساواة والعدالة وطن للجميع من مسلمين ومسيحيين ويهود ، ولكل منهم فى وطنه نصيب ، وبازدهار الحضارة ازدهرت الصناعة والزراعة والتجارة ، حتى بلغت أقصى الأرض ما بين المحيطين الهادى والأطلسى أى شرق آسيا وغرب أوربة وفى أفريقية ، وما تزال ساطعة الأضواء فى كل الأرجاء لم تنل منها مائتا عام من تجييش « الصليبيين » جيوشهم إلى أرض الإسلام لاقتلاعه من جذوره من قرون تسعة مضت ، كما لا تنال منها ترهاتهم فى هذه الأيام .

وعلى هذا كانت « تطبيقات » الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وتطبيقات الأئمة من

بعده هى المادة الأولى للكتاب الحالى ، والاقتصاد فى الإسلام كالتجارة عمل وسلوك نبيل دخلت بهما كثرة الأمم فى الإسلام .

وكذلك كانت الأبواب الواردة فى الجزء الأول من هذا الكتاب أبوابا تبادرنا بها إلى الجواب فى موضوعه .

فالأول : خاص بالعلم والسلام لكل العالم وبالاقتصاد الإسلامى .
والثانى : بعنوان بين العقيدة والتطبيق الدقيق . .
والثالث : خاص بحرية السوق وسعر السوق وتدفق السلع .
والرابع : خاص بالتجارة الخارجية وبالربا .

وأجلنا إلى الجزء الثانى خصائص الإسلام التى أبلغت ازدهار المسلمين اوجه ، والرسالة الإسلامية رسالة للبشر كافة ، والزمان كله فى خدمتها ، والله تبارك وتعالى قد وعد بنصرها على الدين كله ، والمسلمون من دينهم على يقين .

* * *

وفى الجزء الثانى جمعنا بين بابين هما الأول والثانى ليرى القارئ أسباب السمو ثم أسباب الهبوط ، ويرى الأسباب الأخيرة مسلطة عليه ليرجع القهقرى فى خصائص مجتمعه وشريعته ، وافدة مع الغزو العسكرى على مدى القرنين الأخيرين من التاريخ الميلادى ، وهما يبدءان من العامين الأخيرين للقرن الميلادى الثامن عشر ، ومع الجيش الغازى جيوش من الغزو الفكرى لكل مرفق من المرافق ، تنزح الأموال إلى خارج أرض المسلمين ، وتفسد أسباب التقدم ولا تعبأ بالتعليم ، وتغلب مصالح الأجانب على المصريين ، وتحاول تدويل مصر أو تفرض الحماية عليها ، ومع ذلك ضربت مصر الأمثال للعالم بتحطيم قيود الاستعمار فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بثورة سنة ١٩١٩ ، وكررت انتصارها على الاستعمار فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بثورة سنة ١٩٥٢ ، وبمصر اقتدت دول العالم الثالث كافة ، وبانتصار العاشر من رمضان ١٣٧٣ هـ (أكتوبر ١٩٧٣ م) يبدأ العصر الجديد ، ﴿إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾[1] .

عبد الحليم الجندى

---

(١) سورة الطلاق : الآية ٣ .

الجـــزء الأول

﴿وعـد الله الـذيـن آمنـوا منكـم وعملـوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾ قرآن كريم : سورة النور آية : ٥٥

أبواب الجزء الأول

الباب الأول : الإسلام دين العلم والسلام لكل العالم

الفصل الأول : الإسلام دين العلم والسلام لكل العالم .

الفصل الثانى : فى الاقتصاد الإسلامى والأخلاق .

الباب الثانى : بين العقيدة والتطبيق الدقيق

الفصل الأول : بين العقيدة والتطبيق الدقيق .

الفصل الثانى : التجارة بين الله والناس .

الباب الثالث : فى التجارة وحرية السوق وسعر السوق

الباب الرابع : فى التجارة العالمية والربا

الفصل الأول : التجارة العالمية .

الفصل الثانى : الربا .

الباب الأول

الفصل الأول

الإسلام دين العلم والسلام لكل العالم

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾[1] .

(لقد سبق للعرب أن فاقوا العالم فى مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم نحو ألفى سنة قبل أيام اليونان والرومان ، ثم فى العصور الأخيرة ، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم فى المستقبل القريب أو البعيد)

« جورج سارتون »

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

المبحث الأول :

الإسلام دين العلم

ولد الإسلام فى العلم ، ومنه أدلته وحججه على خصومه ، وشريعته التى سادت بها الحضارة من ألف وأربعمائة عام ، وستسود بها كل حضارة تتغيا رفعة شأن الإنسان ، بالعلم والحرية والمساواة والعدل والتعاون بين البشر ، والسلام لكل العالم .

بدأ الله تعالى وحيه بالعلم ليكون أساسًا لرسالته الخاتمة الدائمة ، وأنزل القرآن تبيانًا لكل شىء ، وأرسل رسوله ﷺ مبلغًا له ، ووعده بالنصر على الدين كله ، وهو – جل ثناؤه – أول المعلمين ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾[١] ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة﴾[٢] .

وهو سبحانه القائل : ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ﴾[٣] .

وكان رسوله – عليه الصلاة والسلام – يقول « بعثت بالعلم »[٤] ويفتح أبواب العلم لأمته بقوله : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » وقوله « قليل العلم خير من كثير العبادة » وقوله « من ظن أن العلم له غاية فقد بخسه ووضعه فى غير منزلته التى وضعه الله فيها » .

وبالتعليم النبوى والأسوة الحسنة صار أصحاب الرسول معلمين للأمة ، وأصبحت بيوتهم معاهدها ، وأبناؤها أساتذتها كالعبادلة الأربعة وكحميد بن عبد الرحمن ، ومن العلماء من كانوا موالى أمهات المؤمنين .

وكان حقًّا للعلم الإسلامى أن يكتب الخلود له بمنهج قرآنى يحمل أعلامه ويطبق أحكامه قوم يعرفون حقيقة الخلق وقدرة الخالق ، وتعمل به الحضارة فى كل العصور .

---

(١) سورة العلق : الآية ٥

(٢) سورة البقرة : الآية ٣١

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٨

(٤) الأحاديث الواردة فى هذا الكتاب واردة بنصها أو بمعناها فى كتاب جامع الأحاديث للإمام السيوطى ، وهو علامة القرنين التاسع والعاشر الهجريين ، وعمدة جامع الأحاديث الكتب الستة موطأ مالك ومسند الإمام أحمد وصحيح ابن حيان ومسند الإمام الشافعى نحو ثمانين كتابا آخرها من مصنف عبد الرزاق بن همام وابن أبى شيبة والترغيب لابن شاهين . ومسند أحمد وحده يحوى ثلاثين ألف حديث بعد حذف عشرة آلاف حديث مكررة ، وفى أجزاء هذا الجامع بيانات عن الأحاديث الموضوعة .

فى أول وحى نزل قال تبارك وتعالى لرسوله : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم﴾[١] .

والقراءة باسم الله الذى خلق الأكوان وعلم الإنسان تقديس له سبحانه ، وإقرار بتوحيده وبسائر صفاته ، والاحتجاج لها بالعلم استناد إلى الحجة المؤكدة ثم زادها توكيدًا أول قسم فى القرآن ، وهو قسم بالقلم وبما يسطره ، يشير إلى أن العلم أساس هذا الدين .

واستعمال العقل فى أول وحى إشارة واضحة إلى أن الإسلام قائم على الحجة ، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالاستقراء والاستنباط لتتأدى العقول بالعلل إلى المعلول .

وفى علوم القرآن والسنة واللغة العربية نُتج كبار العلماء وصارت أصول الفقه أصولاً للفكر الإسلامى كله ابتداء من الفقهاء فى الجيل الأول حتى اليوم ، ومرورًا بالجيولوجيين والفلكيين والأطباء والمهندسين والكيميائيين والصيادلة والرياضيين فى سائر الأجيال ، بالرياضيات العربية اتسعت العمليات الحسابية لكل الأرقام ، ولو بقى العالم على الأرقام اللاتينية لعجز عن العمليات الكبرى مثل حسابات الفلك ، وبعلوم الضوء فتح العلم العربى الطريق لجاليليو وكوبرنيق وكبلر وعلماء الكون جميعًا .

وليس غريبًا أن نجد عبارات للشافعى (٢٠٤هـ) من كتاب الرسالة أو كلمات للغزالى (٥٠٥هـ - ١١١١م) وهو أصولى شافعى المذهب نجدها بذاتها عبارات لديكارت (١٦٥٠م) ونجد نظرية الأصنام الأربعة التى أجمل فيها فرنسيس بيكون (١٦٢٥) طريقته كاملة فى كتابه (المنطق الجديد) ، كمثل ما نجد نظرية الشك عند ديكارت ، وانتقل المنهج الإسلامى بترجمة كتب المسلمين فى القرون الخمسة السابقة على حياة هذين العالمين ، واشتغلت بترجماتها بضع عشرة جامعة أوربية ، تعلمت فيها أوربة مناهج المسلمين ، وهى تسميها الآن علم التجربة [٢] .

يقول المستشرق نيكلسون عن القرون السبعة الأولى من التاريخ الإسلامى : (وكان لا نبساط رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل ، حتى لقد يرى الناس جميعًا من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأنًا

---

(١) سورة العلق ، ١ - ٥ وهى آيات خمسة تذكر الإنسان والعلم مرتين والقلم مرة ويجئ بعدها أخرى بأول قسم (نون والقلم وما يسطرون) لتدل أعظم دلالة باجتماعها على أنها تتآخى « حضارة إنسانية » ليكون الإنسان قادرًا على التقدم وجديرًا بخلافة الله فى الأرض .

(٢) القرآن والمنهج العلمى المعاصر للمؤلف ، الباب الرابع طبعة دار المعارف .

طلابًا للعلم ، أو على الأقل أنصارًا للأدب ، وفى عهد الدولة العباسية – القرون الخمسة حتى السابع الهجرى – كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيًا وراء العلم والعرفان ، ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المثقفين ، ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنفات التى هى أشبه بدوائر المعارف ، والتى لها أكبر الفضل فى إيصال علوم المدنية إلينا بصورة غير متوقعة) .

ويقول روجير بيكون – وقد عاش القرن الميلادى الثالث عشر حتى التسعينات منه – ما يعتبر شهادة عصر بكامله : (إن وجود الفكر الأوربى والعلم الأوربى كان مستحيلاً لولا وجود المعارف العربية ، لقد دعيت أوربة إلى الحياة بعد أن ظلت فى ظلمات الجهل خمسة قرون ، وهى مدينة للمعارف العربية بكل تقدمها) .

بل يقول الملك الإنجليزى الذى كان يحكم نصف أوربة فى القرن الحادى عشر عن حضارة الإسلام فى الأندلس وعلومها : (من جورج الثانى ملك إنجلترا والغال (فرنسا) والنرويج إلى الخليفة هشام الثالث[1] بعد التعظيم والتوقير ، سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم فى بلادكم العامرة ،فأردنا اقتباس هذه الفضائل لنشر العلم فى بلادنا ، التى يحيطها الجهل من أركانها الأربعة ، وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة دوبانت على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز – من خادمكم المطيع جورج) [2] .

وظلت كتب الرازى وابن سينا تدرس فى جامعات أوربة حتى القرن السابع عشر للميلاد ، وصورتاهما معلقتان فى كلية الطب بباريس ...

ولم يستطع التعصب الأوربى أو الفتك الصليبى أن يطمس الحقائق ، حتى إذا خفت شدائد الاستعمار فى القرن الحالى قرأنا قول برنارد لويس وهو مستشرق عنيد : إن أوربا فى القرون الوسطى تحمل دينًا مزدوجًا للعرب ، فهم الوسيلة التى انتقل بها إلى أوربا من العرب طريقة جديدة للبحث وضعت العقل فوق السلطة ، ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة ، وكان لهذين العاملين الفضل الكبير فى القضاء على العصور الوسطى والإيذان بعصر النهضة .

---

(١) حكم من ٤١٨هـ إلى ٤٢٢ (أوائل القرن الحادى عشر الميلادى) .

(٢) كتاب العرب عنصر السيادة فى القرون الوسطى وأورد المؤرخ التركى عبدالرحمن شرف الدين فى كتابه التاريخ العام ما صاحب الخطاب من هدايا الملك إلى هشام الثالث .

المبحث الثانى :

أسماء بعض العلماء من غير رجال الفقه وأصول الدين واللغة وقد بلغ بهم التشريع الإسلامى وفقهه أعلى ذروة :

١ – جابر بن حيان : (١٦١هـ / ٧٧٨م) واضع أسس علم التجربة بتجاربه الكيميائية ، والتاريخ يبايعه بأنه أول كيميائى ، وفيه قول أكبر أطباء العصور الوسطى الرازى : أستاذنا جابر بن حيان .

٢ – الخوارزمى : (٢٢٥هـ / ٨٥٥م) صاحب كتاب (الجبر والمقابلة) وقد نقل فيلاردى سنة ١٢٢٠ كتابا له فى الحساب سماه (كارمن دى الجورزمى) وترجم كتاب الجبر والمقابلة بوشستر ، ولفظ (لوغاريتم) تحريف للخوارزمى . وعن الخوارزمى عرفت أوربة الأرقام العددية وعلامة الصفر ، وقد ظهرت فى النقوش فى إيطاليا فالنمسا فإنجلترا واسكتلندا ، وكان البابا – سلفستروس (١٠٩٨ – ١٠٠٣) ممن عاونوا فى ذلك ، وهو من تلاميذ قرطبة .

٣ – الكِندى : (١٧٥ – ٢٥٢هـ/ ٨٠١ – ٨٧٨م) له تجارب فى الجاذبية الأرضية ، ومؤلفات فى المرئيات ونشأة الكواكب وتأثيرها على الأرض ، وفى مؤلفاته كتب أن « كل ما فى الفلك كروى الشكل » – وكتبه فى أوربة منذ القرن الثانى عشر .

يقول عنه كاردانو (١٥٧٦) : هو واحد من ١٢ عبقريا ظهروا فى العالم . وروجير بيكون يضعه وابن الهيثم فى الصف الأول مع بطليموس .

٤ – الرازى الطبيب : (٢٤٠ – ٣٢٠هـ/ ٨٦٤ – ٩٢٥م) يسميه الفرنجة جالينوس العرب والرازى أستاذ التجريب فى الطب ، تُرجمت كتبه مبكرًا لتبقى أسسًا للطب ومرجعًا مأخوذًا به ، اهتم بالتشريح ، واتخذ البطاقة السريرية أساسًا للعلاج فى مستشفى الدولة ، وهو اول من أجرى التجارب على القردة وأول من استعمل أمعاء الحيوان لخياطة الجروح ، وأول من جعل الغذاء للمريض واجبًا لمقاومة المرض حتى لا يحرم المرضى قوة المقاومة ؛ ومن أصوله : ما اجتمع عليه الأطباء وعضدته التجربة فليكن إمامك .

٥ – المسعودى : (٣٤٩هـ/ ٩٥٦م) فلكى جيولوجى جغرافى مؤرخ أول من أثبت علاقة البيئة بالإنسان ، وابن خلدون يسميه إمام المؤرخين ، وقد تأثر به .

٦ – الحسن بن الهيثم : (٤٣٠هـ) بايع له العالم منذ القرن الثانى عشر الميلادى على

أنه مكتشف علوم الضوء ، وفى القرن السادس عشر ظهر علمه فى كشوف الفلك . ألف فى الرياضيات ٤٧ مؤلفا و٨ فى الهندسة .

٧ – ابن سينا : (٣٧٥ – ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) فيلسوف . طبيب . جيولوجى . فقيه ، ظلت كتبه الطبية تدرس حتى القرن السابع عشر فى جامعات أوربة مع كتب الرازى ومنها كتابه القانون فى الطب .

٨ – البيرونى : (٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) فلكى . رياضى . كيميائى . طبيعى . موسوعى ، « أعلن أن الأرض متحركة حركة الرحى على محورها » وأن « الخلاء فى باطن الأرض يمسك الناس حواليها » له كشوف فى مقياس محيط الأرض ، وفيه قول المستشرق الأمريكى أريوبوب : فى أى قائمة تحوى أسماء العلماء يجب أن يكون لاسم البيرونى مكانه الرفيع .. لمساهمته الرفيعة فى جميع العلوم .

٩ – الزهراوى : (٣٢٦هـ/ ١٠١٣م) طبيب جراح ، اشتهرت عملياته ونقلتها المستشفيات الإسلامية فى الشرق والغرب .

١٠ – ابن البيطار : (٦٢٦هـ) له كتب فى الأدوية والأغذية ما تزال مراجع العلم الحديث ، ترجمت إلى الفرنسية ١٨٨٣ فى باريس .

١١ – النيفاشى : (٦٥١هـ/ ١٣٢٥م) له تجارب تدرس فى الجيولوجيا وله تصنيف للمعادن مأخوذ به للآن .

١٢ – البغدادى : (٦٤٩هـ) طبيب فقيه ، صاحب تجارب خطأ بها جالينوس وأهل الطب من بعده ، وأظهرت تجاربه فى العقاقير القديمة أخطاء السابقين .

١٣ – ابن النفيس : (٦٧٨هـ/ ١٢٩١م) فقيه فيلسوف طبيب ، تخرج من الأزهر ودرس فى مدارسه فقه الشافعى ، كما وضع السيرة الكاملية فى السيرة النبوية ، ومارس التشريح ، وقال عن تجاربه الطبية . إنا نعتمد فى تعرف حدود الأعضاء الباطنية على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر خاصة الفاضل جالينوس .. أما منافع كل واحد من الأعضاء فإنا نعتمد على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ، وافق ذلك من تقدمنا أو خالفه ، وقد أدت أبحاثه فى (القلب) إلى اكتشاف الدورة الدموية ، وترجمت كتبه إلى اللاتينية وظهرت فى إيطاليا ١٥٤٧ وظهرت بعد نشرها مؤلفات ثلاثة سنة ١٥٥٣ وسنة ١٥٣٩ وسنة ١٥٧٩ وتداولتها الجامعات وكانت تنشرها جامعة بادوا حيث كان الطبيب الإنجليزى

هارفى يتلقى دراسته ، فلما عاد إلى إنجلترا أجرى تجاربه على خيول الملك ، وأعلن الإنجليز أنه كشف الدورة الدموية سنة ١٦١٩ .

١٤ – الجاحظ : (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) أديب ، عالم ، فيلسوف ، جعل التجريب علما وأجرى فيه تجاربه ، وشهد للإمام الشافعى حيث يقول فيه : « نظرت فى كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا فى العلم فلم أر أحسن تأليفا من الفتى المطلبى ، كأن لسانه ينظم الدر » ، وأصول القياس كما فصلتها رسالة الشافعى عن أصول الاجتهاد تعلن عدم اطمئنان من يجرى القياس إلى نتائجه إلا بعد تحقيق متكامل لاستبعاد كل الشكوك .

والجاحظ يقول عن الشك : « تعلم الشك فى المشكوك فيه تعلما . فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه » .وله قول معروف : « إن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى ، والدهرية إن كان معاندا فهو آثم ، وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور غير آثم ، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور ، وإنما الآثم المعذب هو المعاند فقط ، لأن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها ، وقد عجزوا عن درك الحق ولزموا عقائدهم خوفًا من الله تعالى إذ استد عليهم طريق المعرفة » ، وقد ناقش الغزالى هذا القول فى مؤلفين له .

١٥ – الغزالى : (٥٠٥ هـ / ١١١١ م) فقيه أصولى شافعى ، له كتاب المستصفى فى أصول الفقه ، وله كتبه المتداولة الآن فى التصوف والأخلاق وإحياء علوم الدين ، ومن أصوله ما جاء فى كتابه عن أغاليط النظار حيث قال : « وكثرة أغاليط النظار من التصديق بالمألوفات والمسموعات فى الصبا من الأب والأستاذ وأهل البلد المشهورين بالفضل » ، وسينقلها فرنسيس بيكون ويعبر عنها بأصنام الفكر الأربعة وفيها فساد اللغة ، ومن أصوله : أن « من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال ، لأن الشكوك موصلة للحق » وأن « الحقيقة نور يقذفه الله تعالى فى الصدور ، وهو مفتاح أكثر المعارف » ، ومن عباراته ما نجده عند « ديكارت » ، وكانت بعض أفكار الغزالى هدفًا لابن رشد يصيبه بردوده ، وقد تدخل فى هذه المعركة توماس الأكوينى فنقل فصولاً من ردود ابن رشد ، وكان توماس الأكوينى على ثقافة عربية من صلات عائلته بالمسلمين . وما تزال أفكار الغزالى محلا للتقدير عند أهل أوربة وإن غلب ابن رشد .

١٦ – وابن رشد : (٥٢٠ – ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ – ١١٩٨ م) قاضٍ – فقيه ،

فيلسوف ، طبيب ، ما يزال فقهه عمدة القضاء بكتابة « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ، وهو يشتهر فى أوربة بأنه شارح أرسطو وبتمجيد العقل ، وكان تحرره الفكرى من أسباب نهضة الفكر الأوربى على رغم الكنيسة التى حرمت كتبه ، ثم خضعت للرأى العام بعد قرن ، وهو يرى العلم طريقًا مؤكدًا لإثبات الربوبية ، ومن يشتغل بالتشريح يزددْ إيمانًا بالله تعالى ، وأن ثمرات العقل ملك لكل البشر ، وأن الحاكم الظالم يحكم الرعية لمصلحته لا لمصلحتها ، وأن أفظع الظلم ظلم القساوسة ، وأن المرأة مظلومة بعدم خروجها للعمل ، وأنها تمثل ثلثى سكان المدن ، فتعطيلها سبب شقاوة المدن .

١٧ – وابن خلدون : (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ / ١٣٢٢ – ١٤٠٦ م) قاضٍ . وفقيه ، ووزير ، كشف بكتاب (ديوان العبر) للعالم علوم الاجتماع وما يتفرع عليها من حقائق التاريخ ، وله فى السياسة والاقتصاد مذاهب تقوم على الحرية والتزام الشريعة .

المبحث الثالث :

القرآن والإعجاز العلمى فى هذا القرن

بدأ فى أوائل القرن الحالى كبير الأطباء المصريين عبد العزيز إسماعيل باشا دراساته الطبية ، ومن بعده جاء الدكتور الغمراوى وقد تخصص فى علوم الطبيعة والصيدلة ، ففتح الطريق لفهم آيات القرآن فى العلوم الطبيعية الصريحة ، وجرى على غرارهما – فى علم الفلك بمصر – الدكتور/ محمد جمال الدين الفندى . كما سجل العلم للطبيب الفرنسى بوكاى مشاركة كبيرة فى هذا الشأن وتتابعت عناية الأمم بالأمر إذ ترجمت كتابات بوكاى إلى اللغات الحديثة .

وما زال يضاف إليها كشوف عن الإعجاز الطبى أو الفلكى أو الجيولوجى أو الكيماوى أو الطبيعى تزخر بها الآيات الكريمة فى أمهات المسائل العلمية كخلق الأكوان ، وخلق الإنسان وقوانين الزوجية فى الإنسان والنبات والحيوان ، وفى كل شىء من الذرة إلى المجرة ، وقوانين الجاذبية أو القوانين الفلكية ووجود الماء فى كل شىء حى . وغير ذلك من المكتشفات الحديثة ، وحفل النصف الأخير من القرن الحالى بالمؤتمرات العالمية والإسلامية الطبية أو العلمية بكشوف عن المسلمات العلمية الواردة بالقرآن الكريم ، وإليك أمثالاً من أعمال الأساتذة الذين سبقت الإشارة إليهم :

أولاً : الطبيب عبد العزيز إسماعيل باشا الأستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة : قدم لمؤلفه

(الإسلام والطب الحديث) شيخ الإسلام الشيخ محمد مصطفى المراغى فى الثلاثينات راجيًا (أن يحتذى أصحاب النبوغ فى فروع العلم شاكلته ، كل فيما تخصص فيه لفائدة النابتة الحديثة التى نود أن تجد فى كتاب الله ما يؤثر على عقليتها من أخص ما تشتغل به فى دراستها ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً) .

حدد المؤلف منهجه فى تقديمه لكتابه بقوله (القرآن ليس بكتاب طب أو هندسة أو غير ذلك ، ولكنه يشير أحيانًا إلى « سنن طبيعية » ترجع إلى هذه العلوم ، فقوله تعالى : ﴿وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (الإسراء : ٤٤) لا يمكن أن يكون الأولون قد فهموها إلا عن طريق التأويل المؤدى إلى خضوع كل شىء لعظمة الله ، حتى الجماد ، مع أن علماء الطبيعة يثبتون الآن حركة دائمة لا تنقطع فى ذرات كل شىء تراه العين ، ولا تحس به سائر المشاعر .

وقوله تعالى : ﴿خلق الإنسان من علق﴾[1] (العلق : ٢) شبه الحيوان المنوى بالعلق ، مع أنه لا يرى إلا بالميكروسكوب ، والعبرة من هذه الآية لم تظهر وقت نزولها ولا بعده بمئات السنين حتى اكتُشف الميكروسكوب ولا يفهم معناها الحقيقى إلا من درس العلوم الحديثة يظهر له إعجاز القرآن بطريقة أقرب إلى إقناعه من الفصاحة ، لأنه عالم ببعض العلوم ، وجاهل بالفصاحة .

ثم تصدى لأربع وثلاثين كلية من الكليات العلمية أولها (الحياة تحت ضوء القرآن) ، مبينًا (أن كل شىء حى يهلك من الجفاف ، ويحيا بالماء ، وأن أفضلية المواد المشار إليها هى فى نوع المواد الزلالية وكميتها) ، وأن هذا (قد ظهر من أبحاث لجنة الأبحاث الملكية بإنجلترا فى التقرير الثالث سنة ١٩٣٣م والأخيرة ..) .

وتحت عنوان (أسرار الصيام الطبية) قال : (للصيام فوائد فى ثلاث جهات ، أولها وأهمها الجهة الروحية وهذه أتركها لعلماء الدين .. وثانيتها : الجهة الأخلاقية وهذه أتركها لعلماء الأخلاق . وثالثتها وأقلها أهمية : الجهة المادية أو الصحية وهذه محل بحثنا .. فالعلاج يستعمل فى ..) وبعد الحديث عن صنوف سبعة من الأمراض يقول : (وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف ، وفى مصر يكاد يكون البول السكرى ، وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا وقليل جدا من الفقراء ، ويغلب على الظن أن ذلك

---

(١) العلقة : اسم من فعل (العلوق) بالبويضة : وهو أول ما تسعى إليه بدأت نطفة الذكر فى رحم الأنثى ، وستقرأ تفصيلاً عن خلق الإنسان فى (علم الأجنة) فى ضوء مكتشفات النصف الثانى من القرن العشرين للميلاد .

هو السر فى أن الصيام فى الإسلام أشد منه فى الأديان السابقة ، لأن الإسلام .. جاء فى زمن نحتاج فيه إلى وقاية من أمراض تزداد كلما زاد الترف ..) .

وتحت عنوان (الخمر وأضرارها) يخص الكلام بالبحث الطبى لا الاقتصادى أو الخلقى .

ويقول فى مدة الرضاعة (إنها يجب أن تكون فوق السنة ، ويستحسن أن تكون سنتين كاملتين كالنص فى الآية : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ (البقرة : ٢٣٣) وهى حقيقة يجمع عليها الأطباء الآن .

وتحت عنوان (النوم وضرورته للحياة) يشرح الآية ٢٥٥ من سورة البقرة ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ .

وتحت عنوان (أضرار الربا) الآية ٢٧٨ من السورة يتكلم أيضًا عن الأضرار الطبية تاركًا ما عداها لعلماء التشريع والاقتصاد .

ثم يشرح قوله تعالى : ﴿تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب﴾ (آل عمران : ٢٧) فينبئنا أن التفسير الحقيقى هو إخراج الحى من الميت كما يحصل يوميا من أن الحى ينمو بأكل أشياء ميتة ، فالصغير مثلاً يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره ، وأما إخراج الميت من الحى فهو الإفرازات ، مثل اللبن .

وتحت عنوان (حكمة الوضوء وفوائده الطبية) يقول شرحًا للآية ٦ من سورة المائدة : (إنها استجماع للقوى العقلية يهيئ النفس للخشوع – كالاستراحة بين محاضرتين – وفوائدها كثيرة من النظافة المتجددة ومقاومة الطفيليات ..) .

وفى شرح الآية ١٤٣ من سورة الأعراف : ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ..﴾ .

قال : إن الإنسان تنقصه الحواس التى يرى بها الله – جلّ وعلا – ولذلك أمر الله – تعالى – سيدنا موسى بأن يرى تأثير القدرة الإلهية فى دك الجبل .

وفى تفسير قوله – تعالى – فى سورة الأنفال ٦٣ : ﴿وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ..﴾ يقول : (قد تكون الكراهة والألفة من « العواطف » الحيوانية المنفعلة التى تنتج من أسباب ظاهرية تتكرر فتحدث تغييرات عضوية فى أعضاء

الجسم – وخصوصًا المخ والغدد الصماء ، وتحدث هذه التغييرات – مع التكرار – أمراضًا عضوية .. ومهما جاهد الشخص فى أن يغير من عاطفته لا يفلح ..) .

وتحت عنوان (التفكير وخلايا المخ) يقول في شرح سورة هود ، الآية ٥ ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ هذه الآية سهلة الفهم بعد ما تقدمت علوم النفس والتنويم المغناطيسى وغيرها ، وظهر جليًّا أن كل فكرة يقابلها تغيير مخى فى الخلايا المخية .. وقد اكتشفت أخيرًا أجهزة كهربائية يمكن بها معرفة حالة بعض الخلايا المخية ..) .

وتكلم عن (القرآن ولقاح الأزهار والنبات) فى الآية ٢٢ من سورة الحجر ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ . والقرآن يتكلم عن فائدة من فوائد الهواء الذى ينقل نطفة الذكر إلى الانثى قبل أن يتقدم علم تشريح النبات بقرون طويلة .

كما يتكلم عن (العسل فى القرآن والطب الحديث) فى قوله – تعالى – ﴿ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ (سورة النحل الآية ٦٩) .. فبين أن الجلوكوز نسبته فى العسل أكثر من أى غذاء آخر ، وهو سلاح للطبيب (فى أغلب الأمراض) واستعماله فى ازدياد مستمر يتقدم الطب ، وهو يعطى للمريض بشتى الطرق وفى أمراض كثيرة متباينة ، وللتقوية ، وضد التسمم من كل المصادر ، وللتسمم البولى والكبدى والمعدى ، والحميات بأنواعها ، وحالات ضعف القلب ، والذبحة والارتشاحات وفى احتقان المخ وأدرانه فى حين لا يستعمل الغذاء علاجًا إلا فيما ندر من أمراض نقص الغذاء ، والفواكه سكرها ليس من سكر العسل ونسبة سكرها ضئيلة وسكر العسل يستعمل مع الأنسولين أحيانًا . ودوائر الشفاء بعسل النحل تتزايد باستمرار .

وتحت عنوان (القرآن وبدء الخلق والحياة والموت) بدأ بالآية ٥ من سورة الحج وأعقبها بغيرها من الآيات نيفت على الثلاثين ، وقال : (إن فيها جوابًا عن الأسئلة الأربعة « بدء الخلق » ، و « تطورات الجنين » ، و « حياة الإنسان على الأرض » ، و « بعد الموت » ، و « النشأة الثانية » .

ثانيًا : الدكتور محمد أحمد الغمراوى (يونيو ١٨٩٣/ مايو ١٩٧١ م) لم يكد يتخرج